يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَـٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَـٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾

شرح الكلمات:

الحُلُم: قال الإمام الراغب في قوله تعالى ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾: أي زمان البلوغ. (المفردات)

التفسير: تبدو هذه الآية مقطوعة السياق لأول وهلة، حيث تناول الله تعالى قبلها موضوع الخلافة، بينما يبيّن الآن كيف يجب أن تكون المعاشرة في البيت. ولكن التدبر يكشف أنها ليست مقطوعة السياق، بل تتحدث عن موضوع تقوية نظام القوم نفسه. فقد أوصانا الله تعالى فيها بأن يستأذن العبيد والأطفال قبل الدخول إلى البيوت في ثلاثة أوقات: قبل صلاة الفجر، ووقت الظهر وبعد صلاة العشاء، لأن الناس يضعون ثيابهم في هذه الأوقات للاستراحة. أما في الأوقات الأخرى فيجوز لهم الدخول في البيوت دون إذن.

لقد أشار الله تعالى بذلك إلى أنه تأتي على الإنسان أوقات من الغفلة، فعلى المرء أن يكون عندها شديد الحذر، ولا يسمح للعبيد والصغار أيضا بالدخول إلى البيوت بدون إذن. فكأن هذه الآية تتضمن نبأً بأن المسلمين سيتخذون العبيد بكثرة في أيام غلبتهم. وقد حدث هذا بالفعل، إذ قد استعمل المسلمون العبيد في إدارة الأمور بكثرة في الأندلس وبغداد، فأدى ذلك إلى دمار المسلمين.

وعندي أن المسلمين لو أدركوا أن هذه الآية لا تقتصر في موضوعها على العشرة البيتية فحسب، بل تتناول موضوع توطيد نظام الأمة أيضًا، لأخذوا حذرهم في أيام ضعفهم، ومهما بدا لهم أحد من الغرباء عديم الضرر لَما سمحوا له بالاقتراب من نظامهم. ولو أنهم فعلوا ذلك لما استُشهد عثمان وعلي رضي الله عنهما. فقد استُشهد علي ﷺ عند صلاة الفجر بيد أحد الخوارج (البداية والنهاية، الجزء السابع ص ٣٢٧: صفة مقتله ﷺ). ولو أن المسلمين قاموا بحراسة بيته وفق هذه الآية لما تجرأ ذلك الخارجي الفاسق على الهجوم عليه ﷺ. وربما قد اختار ذلك الشقي وقت الصبح للهجوم على علي ﷺ بالنظر إلى قوله تعالى ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ مدركًا أن هذا الوقت عورة ولا تكون هناك أي حراسة.

ووقت الظهر أيضا كبير الأهمية من الناحية الأمنية لأن الناس يصبحون غافلين في ذلك الوقت عادة، والعدو يتحين الفرص التي يكون فيها الناس غافلين نائمين. وذات مرة ارتكب الصحابة أيضًا خطأ مماثلا وقت الظهر وكانت النتيجة أن العدو

جاء ووقف على رأس رسول الله ﷺ شاهرًا سيفه ليقتله، ولكن عناية الله التي كانت تكلؤه خيّبت العدوَ في نيته الخبيثة. لقد حصل هذا الحادث عندما كان النبي ﷺ راجعًا من غزوة ذات الرقاع. لقد انتشر الصحابة وقت الظهر للاستراحة هنا وهناك في مكان كثير الشجر، واستلقى النبي ﷺ تحت شجرة. وكان هذا المكان قريبا من المدينة، فظن الصحابة أن لا خطر هناك من العدو، ولكن العدو كان متربصا بهم، فلما وجد الصحابةَ منتشرين وأنه ليس عند الرسول ﷺ أحد منهم، تقدّم وأخذ سيف رسول الله ﷺ وأيقظه، وقال: من يمنعك مني؟ فأجابه الرسول ﷺ بكل هدوء: الله. فما أن سمع العدو هذا الجواب حتى أخذته الرعدة وسقط السيف من يده، فأخذ النبي ﷺ السيف فورا وسأله: من يمنعك مني الآن؟ قال: أنت. فقال النبي ﷺ ويلك، ألم تستطع أن تقول كما قلت: الله. ثم نادى النبي ﷺ صحابته وقال: لقد جاء هذا ليقتلني، ولكن الله تعالى منعني منه. (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع، والسيرة الحلبية المجلد الثاني ص ٢٢٥و٢٨٧). فترى أن العدو قد جاء للهجوم على النبي ﷺ وقت الظهر نفسه.

ثم أوصانا الله تعالى بأخذ الحذر ﴿مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ﴾، ومن أجل ذلك نجد أن الأنصار كانوا يأتون لحراسة بيت النبي ﷺ في الليل. فذات مرة سمع النبي ﷺ صوت سلاح خارج بيته ليلاً. فخرج يستطلع الخبر، فقال له أحد أسياد الأنصار: يا رسول الله، لقد رأيت أن الأعداء قد اشتدوا عداوةً في هذه الأيام، فقلت لأصحابي تعالوا نخرج بسلاحنا ونحرس رسول الله ﷺ، ففرح النبي ﷺ ودعا لهم. (البخاري: كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله)

فهذه الأوقات الثلاثة هي أوقات الضعف والغفلة، ويأمر الإسلام المسلمين أن يأخذوا فيها الحيطة والحذر على وجه الخصوص.

ثم يقول الله تعالى إن الأطفال إذا وصلوا سن البلوغ فيجب أن يستأذنوا عند الدخول إلى البيوت في كل وقت، وليس في هذه الأوقات الثلاثة من الضعف والغفلة فقط. أي أن المسلمين إذا نالوا الحكم فعليهم أن يهتموا بحماية بلادهم في كل وقت ولا يتهاونوا في ذلك أبدًا.

ولكن المؤسف أن المسلمين لم يعملوا بهذا النصح زمن قوتهم، فغفلوا عن حماية بلادهم، فتمكّن العدو من القضاء عليهم. فترى أن الناس في زمن الرسول ﷺ أيضًا كانوا يتخذون لبيوتهم أبوابًا، فما كان بوسع أحد أن يقتحم البيوت بدون فتح هذه الأبواب. ولكن في زمن الخلافة العباسية والخلافة الأندلسية والخلافة الفاطمية لم يتخذوا لبيوتهم أبوابا، بل اتخذوا ستائر من أجل الزينة، وكأنهم فضّلوا الزينة على حماية النفس، فكانت النتيجة أن العديد من الخلفاء قُتلوا على أيدي بعض عبيدهم.

وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

القواعد: هي جمعُ القاعد وهي المرأة التي قعدت عن الولد وعن الزوج (الأقرب).

ثياب: جمع ثوب، ويستعار الثوب للأهل والأصدقاء أيضًا (القرطبي).

متبرجات: تبرّجت المرأة: أظهرتْ زينتَها للأجانب (الأقرب).

التفسير: لقد بيّن الله هنا أن النسوة اللاتي يصبحن طاعنات في السن ويتجاوزن سنّ الزواج، فيجوز لهن ترك الحجاب المعروف، غير أنه يجب أن لا يخرجن بالماكياج والحلي وما إلى ذلك؛ بمعنى أن الحجاب يكون إلى عمر معين ثم يسقط بعد ذلك. ولكن في بلادنا يعملون بحكم الحجاب بطريق خاطئ جدًّا، حيث تجد الفتيات يتحررن من الحجاب كلية، بينما تُجبَر العجائز على القعود في البيوت.

والقواعد تعني العجائز، ويكون مفردها القاعد والقاعدة أيضًا، ولكنها جمع القاعد هنا. والمراد قعودها في البيت لكبر سنّها وعدم قدرتها على الإنجاب. علمًا أن

من قواعد اللغة العربية أنه إذا كان الفعل خاصًا بالنساء ولا يكون هناك اشتباه لوقوعه من قبل الرجال، فيستعملون صيغة اسم الفاعل للمذكر دون إضافة التاء المربوطة للتأنيث، ومثاله "امرأة حامل". فالقواعد ليس جمعًا للقاعدة بل للقاعد.

لقد تبيّن من هنا – ضمنيًا – أن الوجه أيضا عورة، وإلا فسيعني قوله تعالى ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أنهن كنّ لا يسترن وجوههن وأيديهن من قبل، أما الآن فيجوز لهن أن يكشفن ذراعهن وصدورهن أيضًا، بل وكل أجسامهن. ومن ذا الذي سيقبل هذا المعنى؟

ثم يقول الله تعالى ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾. وقد فسّره البعض أنهن إنْ يتجنّبن ترك الحجاب فهو أفضل لهن. ولكن هذا المعنى ليس صحيحًا، لأن الله تعالى لم يقل هنا "وإن يستعففن خير لهن" بل قال ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾، و"إن" شرطية بينما "أن" مصدرية، فالمعنى أن تجنُّبهن تَرْكَ الحجاب خيرٌ لهن في كل حال، أي أنه برغم جواز ترك الحجاب لهن في تلك السن، إلا أن استمرارهن في الحجاب أيضًا يكون خيرًا لهن من عدة نواح. فمثلا إن هذا سيحُول دون تحرُّر الشابات من النساء من الحجاب.

علمًا أن هذه الرخصة هي للمرأة التي يكون سنها حوالي ستين سنة في بلادنا، وسبعين أو خمسة وسبعين سنة في البلاد الأوروبية، إذ تجد العجائز في هذه السن صعوبة في المشي، فيصبح الاعتناء بلباس الحجاب أصعب عليهن. ومع ذلك ينصحهن الشرع بالاستمرار في الحجاب في تلك السن أيضًا لأن هذا سيأتي بنتائج أفضل.

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ

بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

التفسير: يقول المفسرون: كان المسلمون قبل نـــزول هذه الآية إذا خرجوا للغزو لم يبق في بيوت بعضهم أحد، فكانوا يعطون مفاتيح بيوتهم إلى المعذورين الذين لم يستطيعوا الخروج للجهاد، ليحرسوا بيوتهم ويأكلوا منها إذا شاؤوا. ولكن هؤلاء المعذورين كانوا يتحرّزون من الأكل في بيوت إخوانهم بسبب ورعهم وصلاحهم، ويقولون إنما علينا حراسة بيوتهم وليس أن نأكل منها. فأنـــزل الله تعالى هذه الآية ليبيّن لهم أنه لا حرج عليهم أن يأكلوا في بيوت إخوانهم وأقاربهم ما داموا قد سلّموا لهم مفاتيح بيوتهم وخرجوا للجهاد.

وعن ابن عباس وسعيد بن جُبير قال: لما أنـــزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾(النساء:٣٠) قال الأنصار إن الله تعالى قد نهانا أن نأكل أموالنا بالباطل، والطعام أفضل الأموال، ولو أكلنا مع الأعمى أو الأعرج أو المريض فقد نأكل نصيبهم ونكون آثمين عند الله تعالى، لأن الأعمى لا يدري ما أمامه، فقد نأكل أفضل الطعام ونحرمه منه. كذلك من الممكن أن يصل الأعرج

متأخرا للطعام أو يجلس في الخلف، فلا نعدل معه عند توزيع الطعام. ونفس الحال بالنسبة إلى المريض إذ يمكن أن لا يتناول بعض الأطعمة بسبب مرضه بينما يأكلها غيره؛ لذا فيجب أن لا نأكل مع العُمي والعُرج والمرضى. كما امتنعوا عن الأكل في بيوت أقاربهم مخافة الإثم، فأنـــزل الله تعالى هذه الآية وقال: لا حرج عليكم أن تأكلوا مع هؤلاء، ولا حرج أن تذهبوا إلى بيوت أقاربكم وتأكلوا معهم جميعًا أو أشتاتا، ولا داعي لقطع صلات المحبة فيما بينكم بناء على هذه الوساوس.

بينما قال البعض أن العُمي والعُرج والمرضى أنفسهم كانوا لا يحبّون أن يأكلوا مع الآخرين، مخافة أن يتضايق من مرضهم من يأكل معهم، فأنـــزل الله تعالى هذه الآية وسمح لهم بالأكل مع الأصحّاء.

وقال البعض الآخر أن بعض الفقراء الذين لم يكن عندهم طعام كاف كانوا يأخذون المعذورين إلى بيوت أقاربهم ليأكلوا هناك. ولكن المعذورين كانوا يتحرجون من ذلك؟ فأنـــزل الله تعالى أن لا حرج من الأكل في بيوت الأقارب والأصدقاء.

بينما قال الضحّاك: كان أهل المدينة قبل بعثة النبي ﷺ يكرهون الأكل مع العُمي والعُرج والمرضى، فأنـــزل الله تعالى أنه لا حرج أن تأكلوا معهم.

كما تحدّث المفسرون عما إذا كانت هذه الآية من الآيات المنسوخة أم من المُحكمات، فقال البعض أنها منسوخة، إذ لم تكن للبيوت قبل الإسلام أبواب، إنما كان الناس يُسدلون الستائر أمام بيوتهم، فربما دخل الرجل البيت وهو جائع، فلا يجد فيها أحدًا، فأجاز الله له في هذه الآية أن يأكل هكذا. ولكن الناس اتخذوا لبيوتهم أبوابا فيما بعد، كما أمر الله تعالى في القرآن الكريم أن لا يدخل أحد في بيوت الآخرين بدون إذن أهلها، فحُرّم الدخول في بيت أحد والأكل منه بدون إذن صاحبه، فصارت هذه الآية منسوخة.

ويقول البعض أن هذه الآية ليست منسوخة بل هي ناسخة وحجتهم أنه لما نـــزل قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (النساء: ٣٠) امتنع الصحابة أن يأكل بعضهم مع بعض ظنًّا منهم أن هذا يؤدي إلى

حرمان العُمي والعُرج والمرضى من حقوقهم، فأنـــزل الله تعالى هذه الآية من سورة النور. فيرون أن قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ صار منسوخًا بهذه الآية من سورة النور.

ولكن هناك طائفة أخرى من المفسرين تقول إن هذه الآية ليست ناسخة ولا منسوخة، بل هي من الآيات المُحكمات. وحجّتُهم ما رَوَتْهُ عائشة – رضي الله عنها – أن الصحابة إذا خرجوا للجهاد تركوا مفاتيح بيوتهم عند البعض، ولكن هؤلاء كانوا لا يأكلون من بيوتهم في غيابهم، فنـــزلت هذه الآية فهي ليست منسوخة بل مُحكمة.

وقالت طائفة منهم: كان العرب وأهل المدينة يتجنّبون الأكل مع المعوقين لأنهم كانوا يتقززون من جولان يد الأعمى هنا وهناك، وينقبضون من جلسة الأعرج، ولا يطيقون رائحة المريض وعلاته. وكل هذا يدل على كِبرهم لذلك أنـــزل الله تعالى أن لا حرج في الأكل مع هؤلاء المعذورين والأقارب. كما قد تحدث المفسرون عما إذا كانت هذه الآية تحتوي على موضوع واحد أم أكثر. وقد صاروا فئتين بهذا الصدد، فئة تقول إن كل الآية من قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تتحدث عن موضوع واحد.. أي آداب المعاشرة والأكل. بينما تقول فئة أخرى إن قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ يحتوي على موضوع، أما باقي الآية فتتحدث عن موضوع آخر. ويقول هؤلاء إن قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ يعني أن هؤلاء لا يستطيعون أن يشتركوا في الجهاد بسبب عذرهم، فلا لوم عليهم. وقد فضّل العلامة القرطبي هذا المعنى وقال إن الله تعالى قد رخّص للعُمي والعُرج والمرضى في جميع الأحكام التي لا يستطيعون القيام بها بسبب عذرهم.. أي أن لا لوم على العمي إذا لم يستطيعوا القيام بعمل يتطلب البصر، ولا لوم على العرج إذا لم يقوموا بعمل يتطلب رِجلين سليمتين، ولا لوم على المريض إذا لم يستطع القيام بما يتطلب قوة بدنية.

وقد أيّد ابن عطية هذا المعنى فقال: المراد من الحرج هنا كل عذر يكون بالأعمى أو الأعرج أو المريض، فمثلا ليس بوسع المريض أن يصوم، ولا يستطيع الأعمى والأعرج أن يشتركا في الجهاد وما إلى ذلك؛ فإن الله تعالى سيضع أعذارهم في الحسبان ولن يحرمهم من الثواب. أما باقي الآية أي قوله تعالى ﴿وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ...إلخ﴾ فيتعلق بآداب المعاشرة. (انظر القرطبي)

لقد تبيّن من هنا أن المفسرين قد عانوا كثيرا في بيان معنى هذه الآية حتى إن بعضهم قد اعتبرها منسوخة. ولكن عقيدة النسخ في القرآن الكريم عقيدة جدُّ سيئة ومخالفة للإسلام تمامًا، إذ يستحيل بعد ذلك أن يثق الإنسان بأي آية من القرآن الكريم. فلو سلّمنا بوجود آيات منسوخة في القرآن الكريم من ناحية ومن ناحية أخرى لم يخبرنا الله تعالى أي الآيات منسوخة في القرآن الكريم وأيها صالحة للعمل، فإن المرء يظل في ريبة وشكٍّ، حيث يقول في نفسه لعل الآية التي أعمل بها منسوخة، وهكذا سيفقد ثقته بالكتاب كلية. فمن الخطأ تماما أن نعتبر هذه الآية منسوخة، إذ لا يوجد في القرآن الكريم أي حرف منسوخ ولا حركة واحدة منسوخة، بَلْهَ أن توجد فيه آية منسوخة، بل إن هذا الكتاب كله قابل للعمل بدءًا من كلمة ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ التي يبتدأ بها إلى كلمة ﴿وَالنَّاسِ﴾ التي ينتهي بها. فمن واجبنا إذا لم نعلم معنى آيةٍ من آياته أن نمعن النظر فيها ونتدبرها لمعرفة معناها، وليس أن نعتبرها منسوخة، ونسيء إلى كلام الله تعالى.

والحق أن هذه الآية تدل على ميزة عظيمة من مزايا الإسلام التي يتفوق بها على الديانة اليهودية، وهذه الميزة برهان ساطع على أن الإسلام قد جاء من عند الله تعالى كمطر رحمة، فهطل بغزارة على زروع القلوب الذابلة، فجعلها خضرة نضرة؛ فرقصت الابتسامة على شفاه المنكوبين المظلومين من زمان.

لقد كانت اليهودية قبل الإسلام هي الدين الوحيد الذي جاء بشرع مفصّل وفق مقتضيات ذلك العصر، وكانت نسبة كبيرة من الناس ترى خلاصها في العمل بالشرع اليهودي. ولكن ما هي نوعية التعاليم التي كانت اليهودية تقدمها للناس فيمكن للمرء أن يعرفها، إلى حد ما، بقراءة الفقرات التالية:

"وكلَّم الربُّ موسى قائلا: كَلِّمْ هارونَ قائلا: إذا كان رجلٌ من نسلك في أجيالهم فيه عيبٌ فلا يتقدّمْ ليقرِّب خُبْزَ إلهه، لأن كل رجُلٍ فيه عيبٌ لا يتقدّمْ. لا رجلٌ أعمى، ولا أعرَجُ، ولا أفطَسُ، ولا زوائديٌّ، ولا رجُلٌ فيه كَسْرُ رجلٍ أو كَسْرُ يد، ولا أحدَبُ، ولا أكتَمُ، ولا مَن في عينه بياضٌ، ولا أجرَبُ ولا أكلَفُ، ولا مرضوضُ الخُصى. كلُّ رجُل فيه عيب من نسل هارونَ الكاهنِ لا يتقدّمْ ليقرّبَ وَقَائدَ الربِّ. فيه عيبٌ لا يتقدّم ليقرّب خبزَ إلهه من قُدْسِ الأقداس. ومن القُدْس يأكل، لكن إلى الحجاب لا يأتي، وإلى المذبح لا يقترب، لأن فيه عيبًا، لئلا يدنّس مقدسي." (اللاويين ٢١: ١٦-٢٣)

فترى كم هي مزرية هذه التعاليم للعُمي والعُرج والمرضى والمعذورين، وكيف أنها تنهاهم عن الاقتراب من الأماكن المقدسة، وكيف تعُدّهم نجسين وتعتبرهم عضوًا غيرَ صالح في المجتمع. فهل من الممكن أن يفرح بهذا التعليم أي مريض أو معذور؟ وهل يعتبر اليهوديةَ كفيلة لنجاته؟ إن الديانة التي تعتبره نجسًا بسبب عيوبه الخلقية كيف يمكن أن ترضى بإعطائه أي درجة في الروحانية؟

لقد استمر هذا الظلم زمنا طويلا، وظلّت آهات المرضى والمعوقين تصعد إلى السماء تسعة عشر قرنًا وتستجدي رحمة الله تعالى، فاستجاب الله لها وبعث محمدًا ﷺ رحمةً للعالمين، وأعلن على لسانه ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.. أي لا تحتقروا المعذورين ولا تزدروهم. إنهم إخوانكم في الدين، وجزء هام من مجتمعكم، فازدراؤهم ونبذهم بعيدا عن نطاق علاقاتكم الاجتماعية والمدَنية إهانةٌ كبيرة لشرف الإنسانية، لذا فنأمركم أن تعتبروهم جزءا من المجتمع ولا تجعلوهم منبوذين، وإلا ستحدث شقّة واسعة بين المعوّقين والضعفاء وبين أصحاب الثروة والأسر الكبيرة، وستصاب طائفة من القوم بعقدة "الدونية" التي تدمرهم تدميرا، فلن تستطيعوا التقدم كقوم أبدًا. ومن أجل ذلك قال لنا الإسلام ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(الذاريات:٢٠).. أي من يأخذ منكم حقه بالمطالبة ليس وحده شريكًا في أموالكم فحسب، بل إن المرضى والضعفاء والمعذورين أيضا شركاء في أموالكم.

الواقع أن الدنيا ظلت تُهين وتزدري فئة كبيرة من الجنس البشري قرونًا طويلة، فمثلاً كانت الهندوسية قد قسمت شرائح المجتمع إلى "بَرهمن" و"كاشتر" و"وَيش" و"شُودر"*، وفرضت على الشودر أن يخدم البرهمنَ، وأن لا يطالبه بأي حق. بل قد قال "منوجي"⊙:

"لو جمع أحد من الشوادر مالاً فعلى البرهمن أن يسلبه إياه، لأن الشودر إذا صار ذا مال سيؤذي البراهمةَ". (منو سمرتي (ترجمة أردية): أدهياء ١٩ شلوك ١٢٩)

كذلك علّمهم ما يلي:

"يجب أن يسلب البرهمن الشودر مالَه بدون تردد، لأن المال الذي جمعه الشودر ليس له بل هو للبرهمن" (المرجع السابق: أدهياء ٨ شلوك ٤١٧)

وهذا يعني أن شرع الهندوس يبيح للبراهمة أنهم إذا رأوا عند الشودر مالاً يسلبونه إياه فورا، بدون أن يظنوا هذا العمل إثما، إذ المال مالهم وليس للشودر.

ثم لما جاءت اليهودية فإنها نبذت العُمي والعرج والمرضى خارج المجتمع معتبرةً إياهم أنجاسًا (العدد ٥: ٢ واللاويين ١٣). وبما أن عدد اليهود المقيمين في المدينة وضواحيها كان أكثر قبل الإسلام، فكان العرب القاطنون في هذه المناطق متأثرين بهذه العادة اليهودية، فكانوا يعاملون العمي والعرج والمرضى معاملة شاذّة، فكانوا يتحرزون من الأكل معهم ولا يدعونهم إلى مآدبهم وغيرها. واعلم أن هذا التأثير اليهودي كان قويًا جدًّا حتى إنهم اعترضوا على المسيح عليه السلام لما جاءهم وقالوا: لماذا يأكل الطعام مع الجُباة؟ فقد ورد في الإنجيل: "وبينما هو متكّئ في البيت إذا

---

* تقسم الديانة الهندوسية أتباعها على أربع طبقات: ١- البراهمة: وهم الذين خلَقهم الإله "براهما" من فمه: منهم المعلّم والكاهن والقاضي، وإليهم يلجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم. ٢- الكاشتر (أو "كَهْتري"): وهم الذين خلقهم الإله من ذراعيه: يتعلمون ويقدّمون القرابين ويحملون السلاح للدفاع. ٣- الوَيش: وهم الذين خلقهم الإله من فخذه: يزرعون ويتاجرون ويجمعون المال، وينفقون على المعاهد الدينية. ٤- الشُودر: وهم الذين خلقهم الإله من رجليه، وهم يشكّلون طبقة المنبوذين، وعملُهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة الشريفة ويمتهنون المهن الحقيرة والقذرة. *(المترجم)*

⊙ "منوجي" هو الشارح الثقة للتاريخ الهندوسي باعتراف جميع الهندوس. *(المترجم)*

عَشّارون وخُطاةٌ كثيرون قد جاءوا واتّكأوا مع يسوع وتلاميذه. فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه: لماذا يأكل معلِّمكم مع العشّارين والخُطاة؟"(متى٩: ١٠-١١).

يمكن للمرء أن يدرك من هنا كم كان اليهود قد وسّعوا فجوة التنافر بين القوم، حتى إنهم كانوا يعافون الأكل مع العُمي والعُرج والمرضى وأصحاب المهن البسيطة. ولكن محمدا رسول الله ﷺ جاء بتعاليم تساعد على الأُخوّة العالمية وتبني صرح الإنسانية على أسس متينة؛ فكسر بها كل طوق وغُلّ قد وضعته الأديان السابقة في رقاب الناس، وفَكَّ أصفاد التقاليد والعادات التي كانت في أعناقهم. وأمرهم أن يعتبروا التمييز العنصري لعنةً، ويزدادوا أُخوّة، ويأتوا بأبناء الجنس البشري في صف واحد، ويسعوا حتى تزداد علاقات المحبة بين الأقارب على أوسع نطاق.

وقد ذُكر الأقارب خاصة هنا لأن طائفة من الناس ترى الأكل في بيوت الأقارب عيبًا. فإن الهندوس مثلا يعتبرون حتى شرب الماء من بيت بنتهم إثمـــاً. وقد تسرّبت بعض هذه التقاليد الهندوسية إلى المسلمين بحكم عيشهم بينهم فترة طويلة. بل إنك لتجد في هذا العصر الذي يسمى عصر التحضر عادةً غريبة عند الشعوب الأوروبية حيث تجد الابن إذا ذهب لزيارة أبويه في بيتهما يأمرانه بالمبيت في الفندق بدلاً أن يبيت عندهما. وهذا يعني أنه برغم بلوغ هذه الشعوب أوج المدَنيّة في هذه الأيام، إلا أنها لا تزال بحاجة إلى أن تتعلم الكثير والكثير من تعاليم الإسلام فيما يتعلق بآداب التحضّر والاجتماع. لما كانت هذه العادات تؤدي إلى تنافر القلوب وانقطاع أواصر المحبة بين الناس، فقد رخّص الإسلام في أن يأكل الإنسان من بيوت أقاربه وأصدقائه، ليزدادوا حبًّا، ولا يتولد في قلوبهم شعور بالغربة والتنافر.

مجمل القول إن الله تعالى يبيّن هنا أن لا بأس في أن يقيم الأعمى أو الأعرج أو المريض في بيته أو بيت أقاربه أو أن يأكل في بيوتهم بدون أن يُدعى إلى الطعام ما دام لا يتجاوز حد المعروف. كما لا حرج في أن يأكل الشخص البريء من هذه العاهات في بيوت أقاربه الأقربين. كما لا عيب على الذي قد عهد إليه البعض

حفظَ ماله وبيته في أن يأكل من ماله أو بيته إلى حد المعروف. فهذا أمر يتعلق بالعُرف العام ولا اعتراض على العُرف العام.

واعلم أن الأكل مع المرضى هنا لا يعني أن يأكل الإنسان مع المرضى المصابين بأمراض معدية وخطيرة أيضًا. إن الإسلام قد وضع مثل هذه الحالات أيضًا في الاعتبار، وأمر بأخذ الحيطة المناسبة من المصابين بأمراض معدية. فقد أمرنا النبي ﷺ في حديث له بتجنّب المجذوم حتى لا نصاب بهذا المرض (البخاري: كتاب الطب، باب الجذام). وقد أعطانا القرآن الكريم تعليمًا أساسيًا بهذا الصدد فقال ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾(البقرة:١٩٦). إذًا، فالمراد من المرض في الآية قيد التفسير الأمراضُ العادية التي يصاب بها الناس عادة ولا يتضرر منها الناس إذا اختلطوا بالمصابين بها كالصداع مثلاً أو التهاب الحلق والحمى العادية ومرض الأعصاب وما شابهها من الأمراض، لأن المصاب بها يمكن أن يشترك مع الآخرين في الطعام بدون أن يشقّ عليهم ويسبب لهم أي أذى.

أما قوله تعالى ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ فقد قال البعض بصدده: إن كل إنسان يأكل من بيته فلماذا قال الله تعالى إنه لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم؟ ومن ذا الذي لا يأكل من بيته؟ وهل يحتاج إلى الإذن لذلك؟

فاعلم أن المراد من ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ هنا بيوت الأبناء والأزواج. ولما كان الابن غير منفصل عن أبيه ولا الزوجة منفصلة عن زوجها، فإن الله تعالى قد اعتبر بيوت الأبناء والزوجات بمنـــزلة بيوت المرء، والدليل على ذلك أن الله تعالى حين ذكر بعد ذلك بيوتا أخرى لم يذكر فيها بيوت الأولاد والأزواج.

ثم يقول الله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾. ولفظ ﴿أَشْتَاتًا﴾ يدل بكل جلاء على أن القرآن كتابُ الله تعالى الذي كان يعلم عادات أهل الهند حيث لا يأكلون مع الأقارب أيضا وإنما يأكلون أشتاتا.

غير أن كلمة ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ تتضمن أيضا الإشارة إلى أنه يجوز لكم أن تأكلوا من بيوت أقاربكم الأقربين وأصدقائكم، سواء بإذنهم أو بدون أن تُدعوا للطعام. علمًا أن الإذن مستنبَط من لفظ ﴿جَمِيعًا﴾، لأنهم إذا أكلوا معا فالمفهوم أن

الجميع مدعوون للطعام، أما جواز الأكل بدون إذن أو دعوة منهم فمستنبَط من لفظ ﴿أَشْتَاتًا﴾، لأن المرء إذا أكل في بيوتهم وحده فيُفهم منه أنه يأكل دون أن يُدعى.

إذًا، فإن الله تعالى يخبرنا هنا أنه يجوز لكم أن تأكلوا معًا.. أي بإذن أصحاب هذه البيوت، كما يجوز لكم أن تأكلوا أشتاتًا.. أي بدون إذن منهم، لكي تقوي هذه البساطة أواصر المحبة بينكم، فتعيشوا في حب ووئام.

ثم يوصينا الله تعالى بشيء آخر فيقول ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾.. أي إذا دخلتم بيوتا فسلِّموا على أنفسكم أي على أقاربكم وأصدقائكم الذين يسكنون فيها، ولا تظنوا هذا السلام الذي يخرج من أفواهكم أنه منكم، وإنما هو هدية عظيمة من عند الله تعالى؛ بمعنى أن لفظ السلام وإن كان يبدو لفظا عاديًا إلا أنه عظيم من حيث النتائج. ذلك لأن لفظ السلام يتضمن وعدًا من الله تعالى بالسلامة، فالحق أنك حين تسلّم على أخيك فلا تسلّم أنت وإنما تبلّغه وعد السلام من الله تعالى.

لقد رأيت أن الناس في بلادنا يدخلون في بيوتهم بدون السلام، وهذا يعني أنهم يعتبرون السلام دعاء للآخرين ولكن ليس فيه أي دعاء لآبائهم وأمهاتهم وأزواجهم وأولادهم. بينما يأمر الله تعالى جميع المسلمين أن يسلّموا كلما دخلوا في بيوتهم. بل لقد قال الرسول ﷺ أن يسلّم المرء على كل إنسان يلقاه، عرَفه أم لم يعرفه (النسائي: كتاب الإيمان، باب أي الإسلام خير). ولكن المؤسف أن فئة من المسلمين في بلادنا قد تركوا التسليم كلية، واخترعوا مكانه كلمات أخرى مثل لفظ "آداب" وما إلى ذلك، ولو سلّم عليهم أحد ظنوا أنه قد رماهم بحجر، مع أنهم بتركهم حكمًا من أحكام الإسلام وتعليما من تعاليم الرسول ﷺ يلقون الأحجار على أنفسهم بأنفسهم، ويعتبرون السلام الذي هو مَرْهَمٌ حجرًا. إن قولنا لأحد "السلام عليكم" يعني أننا ندعو أن يشمله السلام من عند الله تعالى، فتندمل جروحه، ولكن هؤلاء الأغبياء يقولون لمن يسلّم عليهم إنه يجرّحنا بحجر. فهل هناك أحد أكثرُ حمقًا ممن يسمي المرهم حجرًا؟

إذًا، فهناك فئة من المسلمين تركت السلام كلية، بينما هناك فئة أخرى التي لم تترك السلام ولكنها تجهل حقيقته. إنهم يأتون إلى المجالس صامتين، ويدخلون في البيوت صامتين، دون أن يفكروا في ما أمرنا به الرسول ﷺ في مثل هذه المناسبات، ولو نبّههم أحد إلى ذلك يقولون: ما الحرج في ترك السلام، إنه أمر بسيط. بينما يقول بعضهم: لم نسلّم خجلا وحياء. ويقول الآخرون: لسنا متعودين على السلام. والحق أن هذه الفئة الثالثة حمقاء مثل الفئتين الأُوليَين، ذلك أن الحياء يعني الامتناع من شيء، وعلى المرء أن يمتنع عما هو ضار وليس عما هو نافع.

ثم إن القرآن الكريم لم يطلق اسم "التحفة" على أي شيء آخر كما أطلقها على السلام، حتى إن التحفة التي يتلقاها المرء من الله تعالى بعد موته هي السلام نفسه الذي يهديه له الملائكة من قِبل الله تعالى. فلو أن أكبر شخص في العالم قال: ما الحاجة أن أسلّم على أحد؟ قلنا له: ما دام الله تعالى نفسه يسلّم على عباده المؤمنين، فكيف يمكن بعد ذلك أن يعتبر أحدٌ نفسه أسمى من أن يسلّم على الآخرين؟ حتى إن أول ما يتلقاه المرء من ربه عند لقائه هو السلام نفسه. كما ورد في الحديث أن جبريل عليه السلام كلما زار النبي ﷺ سلّم عليه، فيردّ عليه بالسلام (تاريخ الخميس: الجزء الثاني ص ١٤٧: طلوع جبريل عليه السلام مجلس النبي ﷺ). فمن ذا الذي هو أكبر من النبي ﷺ حتى يتسامى عن التسليم على الآخرين؟ ولكن المؤسف أننا نجد كثيرا من الناس يحتقرون إلقاء السلام على الآخرين ولا سيما المثقفين منهم بالثقافة الإنجليزية. إن هؤلاء يؤكدون بعَملهم هذا أنهم يظنون أنهم أكبر من الرسول ﷺ ومن جبريل عليه السلام وحتى من الله تعالى حيث يرون أنهم في غنى عما فرضه الله تعالى على الناس لحِكم كثيرة، بل قد فرضه على نفسه، كما أوصى به الرسولُ ﷺ أيضا. إنهم إما أن يكتفوا بالإشارة باليد، أو يقول أحدهم للآخر: حضرة الشيخ، فيجيبه: حضرة الأخ؛ أو يقول بعضهم: كيف حالك؟ ولكن الشرع لا يريد منا هذا، بل أوجب علينا أن نقول للآخر: السلام عليكم. وقد اعتبر النبي ﷺ هذا الأمر عاملاً على وحدة الأمة، وكان الصحابة ملتزمين به جدًا. فمرةً قال أحد لصاحبه: تعال نذهب إلى السوق. فظن صاحبه أنه ربما يأخذه لأمرٍ هامٍ، ولكنه ذهب به وتمشى

بالسوق ورجع دون أن يعمل شيئًا أو يشتري حاجة. وبعد يومين أو ثلاثة جاءه مرة أخرى وقال له: تعال نذهب إلى السوق. فقال له: لقد ذهبتَ إلى السوق ذلك اليوم ولم تشتر شيئًا ولم تعمل عملا، أفتريد اليوم أن تذهب لأمر هامٍّ أم لمجرد المشي؟ فقال: إنما أخرج إلى السوق لأني أقابل هناك كثيرًا من أصدقائي، فيسلّمون عليّ وأسلّم عليهم (الأدب المفرد للبخاري: باب من خرج يسلِّم ويسلَّم عليه). وهذا يعني أن الصحابة كانوا يخرجون إلى السوق فقط ليتبادلوا السلام فيما بينهم.

فمن واجبكم أيضًا أن تسلّموا على الناس في الأسواق والشوارع والمجالس والبيوت عرفتموهم أم لم تعرفوهم، إذ يقول رسول الله ﷺ عليك "أن تقرأ السلام على من عرفتَ ومن لم تعرف". (البخاري: كتاب الاستئذان، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة)

فإلقاء السلام على الآخرين حسنة كبيرةٌ، وقد عدَّه الرسول ﷺ ضروريًا من أجل الأُخوّة الإسلامية. فلا تتركوا التسليم مستهينين به، بل واظِبوا عليه دومًا، لأن الشرع قد عدّه شعار الإسلام. فعلى الكبار أن يسلّموا على من دونهم، وعلى الآخرين أن يسلموا على الكبار، وليس أن يمر بعضهم ببعض صامتًا دون سلام. بل أرى أن من واجب الكبار أن يكونوا سبّاقين إلى السلام لكي يتأسى بهم الآخرون ويعملوا بحسب هذا الشعار القومي.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا

ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٣﴾

التفسير: لقد أمر الله تعالى في هذه الآية أن على المؤمنين من أجل الحفاظ على النظام القومي أن لا يخرجوا من المجلس بدون إذن إذا اجتمعوا عند رئيس القوم لمشورة قومية، وإذا خرجوا من مجلسه بغير إذنه فلن يُعتبروا من المؤمنين.

ثم أمر الله تعالى رئيسَ القوم أن المؤمنين إذا كانوا مجتمعين عنده للشورى واستأذن بعضهم لحاجة ما فليأذن له إذا رأى ذلك مناسبًا. ولكن عليهم أن يعلموا أن الخروج من مجلس الشورى، ولو لحاجة، نتيجةٌ لبعض ما اكتسبوه، وبرغم أن الله تعالى أمر رئيس القوم أن يأذن لهم، إلا أنه تعالى يخبره أن خروجهم من الشورى وبالٌ لبعض ما اكتسبوا من قبل، ثم إن خروجهم من مجلس الرئيس سيُحرمهم من صحبته ومشورته ومن العمل معه، مما يؤدي إلى قلة عِلمهم وخبرتهم، لذا فعليه أن يدعو لهم بأن يحميهم الله تعالى من مغبّة غيابهم عن الشورى وعن صحبته ويتدارك تقصيرهم هذا.

وكان النبي ﷺ شديد الحرص على أن يعمل صحابته بهذا الأمر الرباني، فكان من غير المسموح لهم أن يخرجوا من مجلسه ﷺ حتى للحاجات الطبيعية إلا بإذنه، بل إذا احتاج أحدهم للخروج تحرك من مكانه بحيث يراه النبي ﷺ فيشير إليه بإصبعه أو بيده، فكان ﷺ يأذن له بإشارة يده. (الدر المنثور)

ولكن الناس في هذا العصر لا يدركون أهمية هذا الأمر عادة. إنني أتذكر جيدًا أن الخليفة الأول رضي الله عنه للمسيح الموعود عليه السلام ذهب مرة إلى لاهور، ولما أراد العودة إلى قاديان أمرني أن أمكث في لاهور لأعود فيما بعد مع والدتي أم المؤمنين – رضي الله تعالى عنها – التي كان عليها أن تمكث هناك لأيام أخرى. ولما رجعتُ إلى قاديان ذهبتُ لزيارته رضي الله عنه، ولما سلّمت عليه قال لي على الفور: هل تعرف ماذا

حدث معنا؟ قلت لا. قال: كل الذين كانوا معنا رجعوا وتركونا وحدنا في مدينة "بطاله".

ما يعني أن هؤلاء القوم لم يعملوا بما أمر به الله تعالى في القرآن الكريم بخصوص الأمر الجامع. إن شخص الخليفة بالغُ الأهمية وشديد التأثير على العالم كله. ولو حصل به مكروه – لا قدر الله – لكان له تأثير على الجماعة كلها. لذا يجب أخذ كل الحيطة والحذر بشأنه.

لقد كان الصحابة حريصين جدًا على العمل بهذا الأمر، وكان غياب النبي ﷺ عنهم، ولو لوقت قصير، شاقًّا عليهم. فذات مرة كان النبي ﷺ يتكلم مع نفر من أصحابه، ثم تركهم فجأة ولم يرجع لبعض الوقت، فخرج الصحابة مسرعين بحثًا عنه. وكان النبي ﷺ قد ذهب إلى بستانٍ، فذهبوا كلهم وراءه، وقد بلغ بهم القلق كل مبلغ حتى يقول أبو هريرة – الذي يظن الناسُ أنه كان ضعيف القلب – إنني لم أستطع معرفة مدخل البستان لشدة القلق، فدخلته عبر أحد مجاري المياه. (مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة)

الواقع أن أحكام الدين نوعان: نوع يتعلق بالأفراد كالصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها، ونوع آخر يتعلق بالقوم كلهم مثل الجهاد واجتماع القوم للشورى أو أي أمر آخر صادر بناء على حاجة قومية. والأمور التي لها صلة بكل الجماعة لا ببعض أفرادها، يجب على الجميع أن يكونوا بصددها كحبات السُّبحة المنظومة في خيط واحد، ولا يجوز لأحد أن يتخلف عنها؛ ولو اضطر المرء للخروج من مثل هذه المجالس لضرورة فلا يذهب إلا بإذن الإمام. وتبيانًا لهذه الحقيقة نفسها بلغة الرمز والتصوير فإنهم ينظمون في الخيط حبات السُّبحة كلها أوّلاً، ثم يجمعون طرفَي الخيط ويركّبون عليهما حبة كبيرة طويلة يسمّونها الإمام. والحق أن هذا إشارة إلى أهمية نظام القوم، حيث يعبّرون بذلك أن الناس بحاجة إلى إمام دائمًا يتبعونه كما يكون لحبات المِسْبحة إمام، وإلا فلن يأتي تسبيحهم بالنتائج التي يمكن أن يأتي بها التسبيح الجماعي. والمؤسف أن قليلاً هم الذين يفهمون هذا السر، برغم أن القرآن الكريم يعلن أن الذي يعمل برأيه وحده في أمر يخص الجماعة كلها، ولا يبالي

بالإمام، فهو ليس بمؤمن. على المؤمن أن يستأذن الإمامَ إذا عنّت له حاجة وهو في مجلس يناقَش فيه أمر هام يخص القوم. أو إذا أراد القيام بأمر دنيوي هام يمكن أن يؤثر على الجماعة كلها، فعليه أن يستشير الإمام قبل الشروع فيه. المهم أن يستأذن الإمام إذا أراد الخروج من أمر جامع. وبما أن خروج المرء عن أمر جامع يكون بسبب بعض ما اكتسبه من الإثم، لذا فإن الله تعالى يأمر الإمام أن يأذن له عند الاستئذان، ولكن عليه أن يدعو له أيضًا بأن يغفر الله له زلته ويزيل تقصيره.

لَا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

شرح الكلمات:

يتسللون: تسلل من الزحام: انطلق في استخفاء (الأقرب). فالمراد من ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ أنهم يخرجون من المجلس سرًّا.

لواذًا: لاذَ الرجل بالجبلِ لواذًا: استترَ به (الأقرب)

التفسير: أي لا حقيقة لنداء الآخرين أمام نداء الإمام. فكلما سمعتم نداء الرسول فيجب أن تلبّوه فورًا وتسرعوا للعمل بحسب أوامره، لأن في هذا سرَّ رقيكم وازدهاركم. بل حتى ولو كان المرء في الصلاة فعليه أن يترك صلاته ويلبي نداء الرسول. وهناك أمثلة في جماعتنا على ذلك بفضل الله تعالى. فذات مرة كان الخليفة الأول ﷺ يصلي، فناداه سيدنا المسيح الموعود عليه السلام، فترك صلاته على الفور وحضر عند المسيح الموعود عليه السلام. ولعل حادثًا مماثلاً وقع مع مير مهدي حسين وميان عبد الله السنوري أيضا، ففعَلا كما فعل الخليفة الأول - رضي الله

عنهم. فاعترض البعض على تصرفهم، فقرأ المسيح الموعود عليه السلام هذه الآية نفسها في الجواب.

المهم أن تلبية نداء النبي أمر غاية في الأهمية، بل هو من أكبر علامات إيمان المرء. وبما أن الآيات السابقة تتحدث عن موضوع الخلافة الإسلامية وتحتوي على أحكامٍ تؤدي إلى تقوية نظام الإسلام، لذا فقد استأنف الله هنا الموضوع نفسه ثانيةً، وأوصى المؤمنين بأن لا يظنوا نداء الرسول كنداء الآخرين، بل عليهم بتلبية ندائه على الفور إذا ما دعاهم. وكأن الله تعالى قد بين هنا أن محمدا رسول الله ﷺ يتبوأ منصبين: رئيس دنيوي ونبي الله. ولا غبار على ضرورة طاعة أوامره كرئيس دنيوي، ولكن طاعة أوامره وتلبية ندائه تصبح ضروريةً جدًا بصفته نبي الله تعالى. وإن نفس الحكم ينطبق على خليفة رسول الله بحسب درجته، ولا بد من تلبية ندائه، ويكون الخروج من مجلسه خفيةً إثمًا كبيرًا.

ورد في التاريخ أن كثيرًا من مسلمي مكة حديثي العهد بالإيمان انضموا إلى الجيش المسلم في غزوة حنين، ليُبدوا فيها للناس شجاعتهم وفنونهم القتالية. ولكنهم لم يثبتوا في ساحة القتال أمام هجوم بني ثقيف وفروا حتى لم يبق حول النبي ﷺ إلا اثنا عشر صحابيًا. لقد فرّ وتشتّتَ الجيش المسلم المكون من عشرة الآف مقاتل في حين كان جيش الكفار المكون من ثلاثة آلاف رامٍ يرشقون النبي ﷺ عن يمينه وشماله بالنبال من على الجبال. ولكن النبي ﷺ رفض أن يتأخر، وظل يتقدم إلى الكافرين. فأخذ أبو بكر لجام راحلة النبي ﷺ من شدة القلق عليه، وقال يا رسول الله، فداك نفسي، هذا ليس أوان المضي قدمًا. أرجو أن تنتظر حتى يجتمع المسلمون. ولكن النبي ﷺ قال له في حماس شديد: اترُكْ لجام بغلتي. ثم تقدم النبي ﷺ راكضًا بغلته وهو يرتجز:

أنا النبي لا كذبْ أنا ابن عبد المطّلبْ

أي أنا ذلك النبي الموعود الذي وعد الله بعصمته، ولست بكذاب. فلا أبالي برُماتكم سواء أكانوا ثلاثة آلاف أو ثلاثين ألف. ويا أيها المشركون، لا تغترّوا برؤية شجاعتي، فإني لست بإله، كلا بل أنا بشر وأنا حفيد رئيسكم عبد المطلب.

وكان عم النبي ﷺ العباسُ جهيرَ الصوت، فأمره النبي ﷺ أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة – يعني شجرة بيعة الرضوان عند الحديبية – ويا أصحاب سورة البقرة – أي الذين قد حفظوا سورة البقرة عن ظهر قلب – إن رسول الله يدعوكم.

يقول أحد الصحابة لما فر مقدمة جيش المسلمين إلى الوراء نتيجة جبن مسلمي مكة حديثي العهد بالإسلام نفرت رواحلنا، وكلما حاولنا إيقافها اشتدت عدوًا. وبينما نحن في ذلك إذ سمعنا دويّ صوت العباس في ساحة القتال وهو يقول: يا أصحاب سورة البقرة، يا من بايعوا النبي ﷺ عند الحديبية تحت الشجرة، إن رسول الله يدعوكم. ولما وقع هذا الصوت في سمعي ظننت أنني لست حيًّا، بل أنا ميت، وأن صور إسرافيل يدوّي في أذني. فجذبت خطام بعيري بشدة لأوقفه، فالتصق رأسه بظهره، ولكنه كان مذعورًا جدًا، وبمجرد أن أرخيت له الخطام بدأ يعدو إلى الناحية الأخرى عدوًا شديدًا. فأخرجتُ أنا وكثير من أصحابي سيوفنا، وبعضنا قفزوا من رواحلهم، وبعضنا قطعوا أعناقها، وأخذوا يعدون إلى رسول الله ﷺ. فعادوا إليه ﷺ واجتمع حوله في لحظاتٍ الجيشُ المكون من سبعة الآف صحابي الذي كان يعدو من قبل إلى مكة بشدة. فصعدوا بسرعة على الجبال وقتلوا الأعداء، فانقلبت الهزيمة الخطيرة فتحًا عظيمًا. (عمدة القارئ: كتاب المغازي، باب قول الله ﷻ: ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم، والسيرة الحلبية، الجزء الثالث: غزوة حنين)

وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم مشيرًا إلى هذه الواقعة ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾(التوبة:٢٥-٢٦).

ثم بعد ذلك قال الله تعالى هنا في هذه السورة مركّزًا على هذا الأمر أكثر ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وليس خافيًا على أحد كم تضرر الجيش المسلم في غزوة أُحد نتيجة مخالفة بعض المسلمين

لهذا الحكم الرباني. كان الرسول ﷺ قد عيّن خمسين من الرماة على ممر هام في الجبل، ولحساسية الممر دعا النبي ﷺ رئيس هذه الكتيبة عبد الله بن جبير الأنصاري وأوصاه وأصحابه وقال: لا تتركوا هذا الممر سواء انتصرنا أو متنا. ولكن لما هُزم الكفار وبدأ المسلمون يطاردونهم قال أصحاب الكتيبة لقائدهم لقد تم الفتح للمسلمين، وبقاؤنا هنا الآن عبث، فدَعْنا ننضم إليهم لنأخذ ثواب الجهاد. فقال قائدهم: لا تخالفوا أمر الرسول ﷺ. لقد أمرنا ألا نترك هذا المكان سواءً انتصر المسلمون أو هُزموا. لذا فلن أسمح لكم بترك الممر. فقالوا: لم يقصد الرسول ﷺ بقوله أن لا نتحرك من هنا رغم انتصار المسلمين، وإنما كان يريد بذلك التأكيدَ على حماية الممر. لقد انتصر جيش المسلمين الآن وقد انتهى عملنا، فماذا نفعل هنا. وهكذا قدّموا رأيهم الشخصي على ما أمرهم به رسول الله ﷺ وتركوا الممر ولم يبق فيه إلا قائدهم وبضعة من أصحابه. وبينما كان الجيش الكافر يهرب من ساحة القتال إلى مكة نظر خالد ابن الوليد إلى الممر فوجده خاليًا، فقال لعمرو بن العاص- وكانا لم يُسلِما بعد: انظر هناك فرصة سانحة. تعال نرجع وننقضّ على المسلمين من هذا الممر. فجمعا الكتائب الكافرة الفارّة، وصعدا على الجبل من جانب الجيش الإسلامي ومزّقوا كل من بقي من جنود المسلمين على الممر إربًا، إذ لم يقدر هؤلاء البضعة على مقاومة الجيش الكافر. فحمل الكافرون على الجيش المسلم من خلفه بغتة. وكان هذا الهجوم المفاجئ شديدًا على المسلمين الفرحين بالفتح والمنتشرين هنا وهناك في ساحة القتال، فلم يثبت أمام هذا الهجوم إلا قرابة عشرين صحابيًا، حيث أسرعوا والتفّوا حول الرسول ﷺ يدافعون عنه. ولكن إلى متى كان بوسع هؤلاء الحفنة من الصحابة أن يتصدّوا أمام هجمات العدو المتكررة؟ فقام الكافرون بهجمة شديدة ودفعوهم إلى الوراء، وفرّقوهم عن النبي ﷺ حتى صار وحيدًا في ساحة القتال. فأصابه حجرٌ في رأسه، فدخلت مسامير مِغْفَره في رأسه، وسقط مغشيًا عليه في إحدى الحفر التي كان الأعداء حفروها وغطّوها من قبل كيدًا بالمسلمين. كما استُشهد بعض الصحابة الآخرين وسقطت جثثهم في الحفرة على جسد النبي ﷺ، وأُشيع بين القوم أن رسول الله قد استُشهد. ولكن الصحابة

الذين كانوا تقهقروا نتيجة هجمات الكفار المكثفة اجتمعوا ثانية حول الرسول ﷺ عندما انكشف العدو، فأخرجوه من الحفرة. فأفاق النبي ﷺ بعد قليل، وأرسل رجاله في كل طرف ليجمعوا المسلمين مرة أخرى، ثم أخذهم إلى سفح الجبل. (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة أُحد، والطبقات الكبرى لابن سعد، الجزء الثاني: غزوة رسول الله ﷺ أحدًا)

فأنت ترى أن الجيش الإسلامي لم يلق تلك الهزيمة المؤقتة بعد أن انتصر على الكافرين إلا لأن بعض المسلمين خالفوا حكم الرسول ﷺ واتبعوا اجتهادهم الشخصي بدلاً من العمل بأوامره ﷺ. ولو أنهم اتبعوا النبي ﷺ كما يتّبع النبض حركة القلب مدركين أن الناس كلهم لو قدموا أرواحهم في سبيل اتباع أمر الرسول ﷺ لما كانت هذه التضحية أيضا ذات بال. ولو أنهم لم يتّبعوا اجتهادهم الشخصي و لم يتركوا الممر الذي أمرهم الرسول ﷺ بحمايته بقوله: لا تتحركوا من هذا المكان سواء انتصرنا أو متنا، لَما وجد العدو فرصة للهجوم ثانية، ولَما أصيبَ الرسولُ ﷺ ولا أصحابُه بأي أذى. لذا فإن الله تعالى قد لفت أنظار المسلمين في هذه الآية وأوضح لهم أن الذين لا يطيعون أحكام رسول الله ﷺ طاعة كاملة، أو يفضّلون اجتهاداتهم الشخصية على أوامره، عليهم أن يخافوا أن تنـــزل عليهم آفة أو عذاب شديد. وكأن الله تعالى يقول لنا: إذا أردتم النجاح فعليكم أن تهبّوا قائمين إذا ارتفعت يده ﷺ، وأن تجلسوا إذا انخفضت يده. وسيظل المسلمون أحياء ما بقيتْ فيهم هذه الروح، وإذا ماتت هذه الروح فيهم فلا شك أن الإسلام سيبقى حيًا، ولكن يد الله تعالى ستُهلك القوم الذين يخالفون أوامر محمد ﷺ.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

التفسير: أي لا تظنوا أن بوسعكم أن تحرزوا التقدم والرقي رغم مخالفتكم أحكام الله تعالى. لا شك أن هناك – منطقيًا – بعض الطرق الأخرى للرقي في الدنيا، ولكن اعلموا أن كل ما في السماوات والأرض هو مِلكٌ لله تعالى، ولو أصبحتم لله تعالى لوضَع كل ما في السماوات في قبضتكم، أما إذا لم تتّبعوا أحكامه، فاعلموا أنكم لن تستطيعوا إحراز الرقي بمحاربة الله تعالى. ولا تظنّوا أنه تعالى يصدر أحكامه دونما حكمة. كلا بل إنه خبير بأحوالكم، ولا ينـــزل أوامره إلا بحسب ما تحتاجون إليه. فالعمل بها يضمن لكم النجاح والتقدم حتمًا. أما خوفكم أنكم إذا اتبعتم أحكام الله تعالى فتتعرضون لاضطهاد الناس وتلقون معارضة الأقارب، وتفقدون الوظائف، وتخسرون التجارات، وتصبح عزتكم وشرفكم في خطر، فاعلموا أن الله تعالى قد جعل يومًا للجزاء، فلِمَ الخوف إذًا؟ فإن الله تعالى سيهبكم نعمًا عظيمة، ويشرّفكم بقربه. أما إذا عصيتم أوامره فلن تنجوا من عقابه ﷻ.